مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديميةISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2022 المجلد: 05 العدد: 01 ص.ص: 1902-1924

الأبعاد الوبائية في رواية " الحي السفلي" لعبد الوهاب بن منصور أنموذجا

Epidemiological Dimensions in The Novel of the Lower Neighborhood by Abdelwahab Ben Mansour as a model

عبد الله أوغرب، المركز الجامعي بريكة ، (الجزائر)

abdellah.ougherb@cu-barika.dz

تاريخ إرسال المقال: 10-01-2022 .تاريخ قبول المقال: 03-03-2022

الملخص:

تعدّ الورقة البحثية المعنونة : " **الأبعاد الوبائية في رواية " الحي السفلي" لعبد الوهاب بن منصور أنموذجا** " فرصة لإبراز دور وطريقة التجربة الروائية الجزائرية في قراءة التاريخ واستكشاف الراهن لاستشراف المستقبل من خلال المتن الروائي الموسوم "**الحي السفلي**" 2016 ، والّذي يشكّل لوحة سردية تتضمن مواطن الوباء وأشكاله المتشابكة والمتصارعة بين (الذات/الذات) و(الذات/الآخر) ، في علاقات تتداخل فيها السياسة بالمجتمع بالمنظومات الصحية والدينية ؛ ويكون فيها الإنسان: "**أحمد**" والحيوان: "**القط**" بطلا الصورة الفنية في رواية تحتفي بالرموز وتتعامل معها بلغة تختزل الزمان والمكان، حتى يتجلّى البوح انعكاسا يوثق الوعي بارتدادات أزمات وبائية تعصف بالوطن والمواطن والإنسان.

الكلمات المفاتيح: الرواية – الجزائر – الوباء – التاريخ – الراهن– المستقبل

Abstract:

The research paper entitled " Epidemiological Dimensions in The Novel of the Lower Neighborhood by Abdelwahab Ben Mansour as a model" An opportunity to highlight the role and manner of Algerian anecdotal experience in reading history and exploring the present to explore the future through the" Lower Neighborhood "2016, which is a narrative painting featuring the citizens and forms of the epidemic and the conflicts between (self/self) and (self/other), in relationships in which politics interacts with society with health systems and There is a human being: Ahmed and the animal: "The Cat" is the hero of the artistic image in a novel that celebrates the symbols and deals with them in a language that reduces time and space, so that the edifice reflects a closer reflection of the reverberations of epidemic crises that plague the homeland, the citizen and the human being.

Key words : The novel – Algeria- Epidemic - History- Current - The Future .

مقدمة:

يعدّ الجنس الروائي فسحة إبداعية يراد منها الغوص في صميم الأحداث بقرع الأبواب الموصدة والولوج إلى كوامن الأمور مرام توضيح الحال والمآل وفق متاحات السلطة السردية وعبر انسيابات اللغة وامتيازات البوح ، ليكون البحث الموسوم"الأبعاد الوبائية في رواية "الحي السفلي" لعبد الوهاب بن منصور أنموذجا " فرصة لإبراز تعامل النص الروائي الجزائري مع الوباء الذي تجاوز حدوده المرضية وتعدّى ليصل تأثيره إلى جوانب متعددة جعلت الوطن والمواطن بين كفّ المجهول .

تهدف الدراسة إلى تصوير الكائن والمكنون في رواية الحي السفلي، حيث يكون البدء قراءة في العتبات المفتاحية للنص، حيث يكون كلّ من العنوان والغلاف والمدخل مواطن تصوير وتبرير ابستمولوجي ، ليكون الانتقال من وصف المظهر إلى عمق الجوهر بتقديم ملخص عام لفحوى المتن الروائي ومن ثمّ الإسراء نحو المواطن/الأبعاد الوبائية التي استفزت اهتمامات الكاتب وجعلته يجهر بها ، ليخرج العمل الفني كثيفا بانشغالاته وإيحاءاته التي لم تكتف بالتلميح فقط بل جعلت الحرف الصريح عنوانا تعبيريا مقصديا أراد به المثقف تبرئة ذمته المعرفية واستثمار الفن الروائي لكشف الجوّ الموبوء مرضيا وسلطويا ومجتمعيا ؛ فكيف وردت حروف الاحتجاج الرمزي ؟ وما مدى مساهمة الأدوات الفنية الموظفة في تصوير معالم الارتجاج ؟ وما هي حقيقة الأبعاد الوبائية التي تم تصويرها عبر المتاح البوحي ؟

تتوخى الورقة البحثية توسلا بالمنهج الوصفي تصويرا وبالمنهج السيميائي إعمالا وبالآلية التحليلية إجراء، تتبع الأبعاد الوبائية محلّ التنويه الروائي وجعلها جليّة للعيان لاستحالة إيجاد الدواء دون كشف الداء .

المبحث الأول: الكائن والمكنون في رواية الحي السفلي

تتعدد القراءات النقدية وتتجدد حسب الأدوات والملكات العاشقة لعوالم التسآل ؛ والتي تسعى لفك الشفرات الدلالية المتوارية خلف أسوار النصوص ليكون المستهل .. قراءة في العتبات النصية المتمثلة في عتبة العنوان وصورة الغلاف الذي اختار النص مزاوجته ، إضافة إلى بوابة المدخل الترميزية وملخص عام يعتصر جوارح الرواية بعد اكتشاف مغزى الملامح.

المطلب الأول: في البدء.. قراءة في العتبات النصية

يتأكد دوما أن المتن الروائي إذا انبثق عن مثقف خارج عن سرب الزمكان فإنّه يجعل منه بوحا مكتمل الأركان شكلا وجوهرا ، إذ لا وجود للصدفة في عالم ترصعه الكلمات والأشكال والألوان، لتترجمه مستويات الاستوقاف الجبرية، تلك التي تعطي للرمز قامته وقيمته وأحقّيته بالتجلّي .

تفضح الحروف السردية بهت الأوضاع الاجتماعية وسفالة مهندسي سفليتها ، فلم يكن البوح إلاّ خطابا للرفض باعتباره فعلا وجوديا دالا على الصمود والمقاومة ، وجهرا بدوار المساءلات الواقعية النقدية عبر نبضات القلم والحِلم ؛ خصوصا إن كان السائل عارفا بأسرار الحياة كما الموت ، وبنزوله من معارجه إلى الأرض المطوقة يُتأكد أن عبد الوهاب بن منصور قاضي الشرف والناجي بنصوص التيه باق على خطّه يسائل التاريخ والحاضر والمستقبل بحرقة الحالم المخذول : "أحلام ، صنعتها لنفسي ، قد تتحقق أو لا تتحقق. لم أهتم لذلك ، مقتنعا أن الموت سيباغتني ذات لحظة منهيا الرحلة . "[1]

تبرز الكتابة كفعل حياتي مقصدي يجانس الزمن ، يدعو ويحفّز على تخطي حواجز الرتابة والبحث في ما وراء المكشوف عبر أدوات علمية مصممة فنيا لتُشرِّح الواقع ،تفضح تبايناته وفق مقاربات وصفية تروم التعريف بالداء وبمسبباته استنشادا للحلول التي يمكن تبنّيها ، وهي بمثابة تبرئة ذمة أخلاقية يبثها السارد للوارد توثيقا للتمنهج الابستمولوجي واستكمالا لدورة فنية/حضارية : "ومع الوقت ، تعلمت أن الأحلام تجنبني عتبة الجنون وتمنحني أمل الإستمرار في الحياة . "[2]

يسعى الكاتب الروائي إلى تضمين متنه بمختلف الرموز المباشرة وغير المباشرة من أجل إيصال الرسائل التعبيرية نحو مستقبليها بشكل يسمح باستيعابها وفق مستويات التلقّي والتفكير المختلفة إنسانيا ومعرفيا "فالذات المتكلّمة لا تستعمل كلمات خاصة بها، بل تكون عرضة لدوال آتية من بعيد متحكّمة في شوقها وتفكيرها، بحيث أنها لا تقول بالضبط ما تريد أن تقول، ولا تقول ما تريد أن تقول فحسب. ثمّ إنّ دلالة كلامها تتوقّف على تقبّل الآخر وتأويله.ولذلك يبقى مدلول الكلمات غائما،.."[3]، ممّا يجعل من النص عنوان اتحاد شكلي في الكتابة واختلاف جوهري في التضمين، حيث أنّ " كلّ هذه العمليات تجعلنا نرى النص بناء،

[1] عبد الوهاب بن منصور ، الحي السفلي ، الطبعة 1 ، منشورات مدارج ، تلمسان ، الجزائر ، 2016 ، ص 07

[2] المصدر نفسه ، ص 07

[3] رجاء بن سلامة ، العشق والكتابة قراءة في الموروث ، الطبعة 1 ، منشورات الجمل ، كولونيا، ألمانيا ، 2003، ص 19

لا يمكننا الانتقال بين فضاءاته المختلفة دون المرور من عتباته.ومن لا ينتبه إلى طبيعة ونوعية العتبات يتعثّر بها.ومن لا يحسن التمييز بينها، من حيث أنواعها وطبائعها ووظائفها، يخطئ"أبواب"النص."[1]

ليكون من الواجب على من يتعامل مع النص الروائي معرفة كيفيات مساءلته بدءا بالمعطيات العتباتية وانتهاء بالغوص في ثنايا المواضيع المشفرة حتى تفكّ طلاسمها البوحية..

أ – **عتبة العنوان:** يتراءى عنوان الرواية رحيق المتن الروائي دلاليا ؛ فمن الناحية الصياغية/المصطلحية ورود العنوان في كلمتين : الحيّ/السفلي ، مرده وجود ازدواجية تناقضية بين الواقع والمأمول ،بين عصرنة الزمن ومطحنة الحياة،حيث يعدّ الحيّ تجمّعا سكانيا خارجا عن سرب الزمن تظهر سفليته في افتقاده لمعايير الحيّ العصري وهياكله الجمالية : (تهيئة قاعدية وفنية)، فلم يبد من الحيّ إلاّ ما يشي باجتماع صور البؤس والحرمان وقتامة المشهد فيه ليختار الكاتب بعناية تسمية الحيّ والّتي تراها تتعدد وتتجدد في ثلاث صفات هي : **الحيّ السفلي / حي الصفيح / الحي إيكس (×)** : وهي أسماء تحمل دلالاتها المباشرة فيها ، فما دام هناك الحيّ السفلي فالأكيد أن هناك أيضا "الحيّ العلوي/ الإداري "، وما دام هنالك "حي الصفيح "فالمؤكد أن هنالك "الحيّ الرّاقي" ، ومادام يوجد حي وحيد يدعى "إيكس " فهناك أحياء كثيرة لم تصبها رياح البؤس والمرض، ولم تصبغ بأيتها علامة .

ب – صورة الغلاف: يتوسط اسم الكاتب أعلى صفحة الغلاف كتعبير جليّ على حضوره وموقفه المسؤول والمتضامن مع كل من يسترق النور والحلم ابتغاء الخروج من واقع متأزم وهشّ ، ليترجم الكاتب رغبته في نشر غسيل الأحداث بغلاف يرسم نشر غسيل الملابس معلقة على خيوط بين الريح والصفيح .

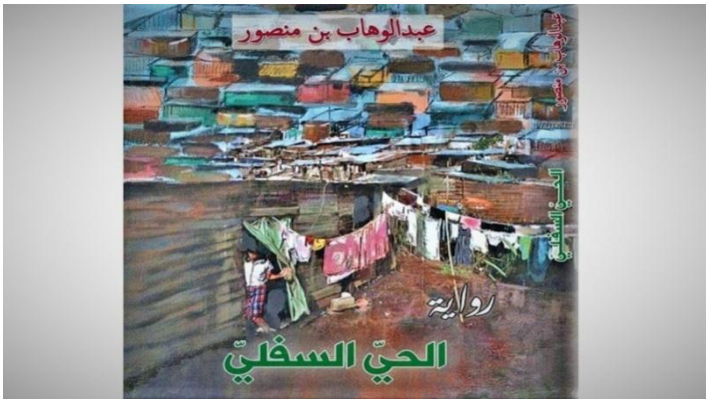

[1] عبد الحق بلعابد ، عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص)، ط 1 ، منشورات الاختلاف، الجزائر ، 2008 ص 15

ج – المدخل .. " جئت لهذا العالم ، كي أحتج ...مكسيم غوركي" : يعد المدخل الروائي عتبة نصية أساسية تحمل من الدلالة والترميز الإدراكي ما جعلها تتقدّم سير البوح وتفتتحه ، فاستفتاح الرواية بقول من "مكسيم غوركي" توقيع فنّي يحمل من الهمّ ومن الهمّة ومن المهمّة الأثر الكبير ، فالكلّ يجيء هذا العالم ، ولكن لماذا ؟ وما هو دوره ؟ وكيف يفعّل حيويته الوجودية ؟

بدءاً؛ يجسد التعبير الغوركي النسق السردي الذي ستتبعه مجريات التالي من الحكي ،والّذي تمظهر عن حروف وشت مظاهر وتمثلات وبائية بكثير من الكليشيهات الفردية والزوجية والجماعية والجمعية ، حيث تشكّلت تصويرا فنّيا يشرّح ويشير لأهمّ المواطن السفلية التي أرّقت المثقف/المواطن ودفعته للجهر بالتعبير والاحتجاج، فتمخض النص ليلد ثلاث مواطن/بؤر جسدت الراهن الوبائي :

أ . الوباء المرضي / ب. الوباء السلطوي / ج . الوباء المجتمعي

المطلب الثاني : ملخص الرواية :

رامت رواية" الحيّ السفلي" الصادرة عام 2016 سواء عبر شكلها الخارجي أو عبر مضمونها الجوهري التعبير عن تضامنها مع "أحمد القط" وجميع العائلات المعوزة الساكنة أسفل اهتمامات المهتمين ، وذلك بالتنبيه للحياة الضنكية التي يكابدها من يتخذ من بيوت الصفيح سترا يقيه العراء .

سار الكاتب على نهج نازك الملائكة (1932–2007) وغابريال غارسيا ماركيز (1927–2014) اللّذان سبقاه في توظيف رمزية وباء الكوليرا وشرح تقاسيمه المأساوية 1947 و1985 على التوالي؛ حيث قام بتصوير الجوّ الوبائي الذي حلّ بالحيّ السفلي كتعبير فني منه على دراماتيكية الوضع الممشهد لحرمان ساكنيه من ذويهم الذين اختطفهم الموت ، بعد أن حُرِموا من متطلبات العيش الكريم ، لتكون العائلة نقطة ارتكاز يشير إليها النص ، محذرا من مغبة التفككات التي غدت تنخر المجتمع فقرا ويتما وضياعا (التأسيس

العائلي)، كما شكّلت الصداقة عنوان متعة وفائدة تواصلية سعى البطل"أحمد القط" لتأكيدها من خلال بحثه عن أصدقائه ولجوئه إليهم ساعة ضيقه : (التأسيس الإجتماعي) .

أولت الرواية عنايتها بالزمن الآتي وتصادم البشرية مع عصر الأوبئة من خلال مشاهد رسمت تفاصيل أزمة صحية تتلقفها عديد الجوانب السياسية والأمنية والاقتصادية والاعلامية والدينية وانتهاء بالجانب الطبي العارف بحيثيات الوضع وحقيقته، حيث تمّ تصوير تجليات الوباء المتمظهرة في إجراءات الحجر والتكفل بالمصابين، وعزلهم في المستشفى القديم ، كما كانت مصحة الأمراض العقلية وجهازها حاضرين رمزيا من خلال تكفّلهما بالبطل بعد إقدامه على محاولة انتحار في الخامس من شهر جويلية !!! ليرفع المتن الروائي ستار الكشف عن ماهية "السلطة" ، حين اختار وورد النص مؤرخا لمرحلة تلي الاستقلال بعشرين عاما أي 1982 ، وموثقا لمرور أسطورتين في الحكم(بن بلة/بومدين)..

تتجسد تفاصيل الفكر والتدبير النظامي من خلال نموذج العربي المونشو (رجل نظام سابق) ،والذي كان لمحاولة اغتيال الرئيس دور في إخراجه من دوائر الحكم واغتياله رمزيا ، فبرزت صورة السلطة عبر تعدد مستويات تعاملاتها مع الموالين ومع المعارضين ،كما بدت مؤثرة على مجريات الأحداث دينية كانت (خطب/جنائز) أو دنيوية (تقرير طبي) مع نموذج (الروخو الفسيان) حين تصدر عنه، فتتجلّى المعلومة صناعة تطبخ وتنضج على هواها لتكون الدوائر الاعلامية حطبها المغذّي للرأي العام .

أشارت الرواية أيضا إلى التخبط الاقتصادي والقفز من الثورة الزراعية إلى تحدّي التصنيع، كما يمكن استنتاج ذكر البكالوريا والجامعة والمنح الخارجية بالتناول الرمزي على أنها حتما معاول بناء رمزي/حضاري لا بدّ من السعي لتفعيله وجعل الاهتمام برأس المال البشري المتعلّم نبض الاهتمام .

يعدّ الدين عصبا مؤثرا في الهندسة المجتمعية التي سعت الرواية إلى الغوص في كوامنها وقراءة الواقع خلف أسوار البوح الحامل لكلّ الاحتمالات ؛ ليظهر توظيف الرمز الخاص بالمؤسسة الدينية في الرواية حاضرا من خلال مواطن تتمثل : "في **الخطب**" : ولكن عبر مظهرين متباينين فكريا وزمنيا وعضويا : الأول جاء عفويا، أما الثاني فقسري، حيث انقلب الخطاب الديني فجأة (من العقاب الإلهي إلى الابتلاء) ، فكيف ؟ ولماذا ؟ ..

- "في **الجنائز**": من الرفض إلى الامتثال للأوامر ؛(الصلاة على الطبيب الهندي/الأخ محمد المنتحر).
- "في **المدارس القرآنية**" : حين يظهر تغلغل الدّين في المجتمع من خلال التنويه بالتعليم القرآني وإبراز اهتمام الجزائريين بحفظه والتنافس فيه (التأسيس الهوياتي) .

يشكّل تجلّي الطب الشعبي بدوره في الرواية عنوان إشارة من الباث الذي طاف بالمكتنز العجائبي، وأشار إلى تلك العوالم التي لا يقوم بها إلاّ الفقيه وحده، حين يصير الكيّ وعود الزبوج والماء وتراب الضريح أقانيم الحياة وعناوين الشفاء، كما يشير المتن السردي إلى القصص الشعبية التي تلف بعوالم الأضرحة ، ليرتسم الضريح في مقام ببعدين : يجعلانه بين المقدّس والمدنّس، بين المؤمن والمستخفّ ، بين الموت والحياة ، بين اللّعنة والكرامة .

شكّلت الرواية عزفا لإيقاعات القلب ليبرز الحب محصورا على العالم السفلي متأرجحا كعادته بين السخاء والوباء ؛ حيث حمّل النّص الحبّ بتجلّياته المادية والمعنوية ، فكانت أحلام "أحمد القط" مبثوثة سرديا ، ليظهر الحب بين جناحين : الحبّ الروحي ويمثّله البطل مع "جميلة " و"طبيبة المستشفى " والحبّ الغريزي الّذي جسّده البطل مع "رشيدة" التي لم تكن راشدة ، وقد جعلت البطل يرى في علاقته بها وباء عليه استدعى منه توقيف مفعوله نهائيا، فما كان منها إلاّ الانتقام عبر متاحات المكتب الثاني الّذي أتت منه قبلا..كما كشف السّرد أيضا عن حميمية العلاقة بين خالة الصديق رشيد (منتوج) مع الروخو الفسيان (المنتج) في مشهد يكشف عن وضع وصورة المرأة الخارجة عن النظام بمباركة من النظام وبتوجيه منه .

المبحث الثاني: الأبعاد الوبائية في الرواية الجزائرية

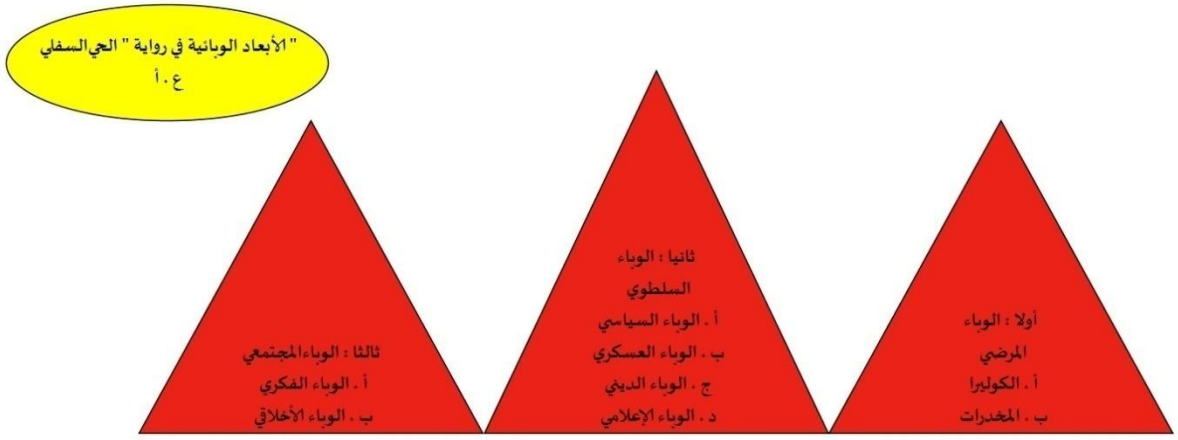

تتراءى الرواية*[1] عبر تتابع مشاهدها السردية شمولية الطرح والتصوير من خلال التطرق لأبعاد هرمية تنذر بالخطر الوبائي المتلوّن الأوجه ، حيث لم يقتصر الوباء على جغرافيته المرضية بل ظهر أن هنالك وباءات أخرى أكبر وأخطر صرّح الكاتب وصارح بها الذات التعيسة، سعيا منه لإنقاذ ما يمكن إنقاذه عبادا وبلادا.

المطلب الأول:الوباء المرضي..أكّد المتن الروائي أن تضعضع الواقع الصحي ينتج بالضرورة عديد الصور الدرامية المترجمة للمآسي المتعدّدة التي يخلّفها أيّ وباء مرضي ، وفي الرواية يشكّل الوباء المرضي الممثّل بـ"الكوليرا" نموذجا رمزيا يحاكي الخراب والضياع والقلق والتوجس، ليكون "الحي السفلي" بؤرة الوباء الموصوف في النص، وعلامة من علاماته الاستوقافية باعتباه فحوى الرسالة التعبيرية وموطنها على الحاجر والمحجور عليه وعلى موطن الحجر: " كان المشهد حزينا ومؤثرا، منذ أن وضعت تلك العلامة بالجير الأبيض عند مدخل البيت. العلامة (×) ، التي تكاثرت بين بيوت الصفيح وصارت تزين مداخلها ، ولم أدرك سرّها إلا حين منعت من مغادرة البيت وأنا أتأبط لوحتي ، قاصدا جامع الحي ." [2]

أ/الكوليرا : سبّب انتشار العدوى بين سكان الحيّ هاجسا لدى الجميع ، وأضحى التوتر عنوان المشهد بعد أن أصبح الموت الخاطف المقيت ، لتتمرأى معالم الخوف على الصبي ، بما كانت تقوم به الجدة ، والتي "كانت تتحسس جبيني عشرات المرات في اليوم لتتأكد من عدم إصابتي بالعدوى ، وتبعدني عن أمي قدر ما استطاعت . ثم تحضر لي شرابا من خليط اللفت ونوار التين البربري أتناوله عدة مرات في اليوم بعد أن تتمتم وتقرأ عليه بعضا من آيات القرآن ،مؤكدة لي أنه يحميني من العدوى ويخفض من حرارة جسدي ." [3]

ترتسم معالم المعاناة المرضية الممشهدة سرديا والتي كان البطل نموذجها المتكلّم: " تعاودني آلام البطن الحادة بقرقرة معدتي فأنسحب من بين ذراعيها . أبحث عن وضعية تسكن الآلام.أتكور على الأرض .أرفع رجلي . أتمدد على بطني ثم على ظهري وعلى جنبي . أقرفص واضعا رأسي بين ذراعي وأضغط .

[1] * الرواية رسالة موجهة من كاتب (مرسل) إلى قارئ (مرسل إليه) ، خارجيا، ومن راوٍ إلى مروي له ،داخليا. شفرتها هي اللغة. وصلة الوصل المادية هي الخط المكتوب. والسياق الخارجي هو الظروف الثقافية والسياسية المشتركة بين الكاتب والقارئ، والسياق الداخلي هو الظروف العامة التي يرسمها النص للشخصيات والأحداث،..ينظر أكثر د لطيف زيتوني ، معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان ناشرون ، ط 1 ، لبنان ، 2002 ، ص 12

[2] عبد الوهاب بن منصور ، الحي السفلي ، ط 1 ، منشورات مدارج ، الجزائر ، ، 2016 ، ص 08.07

[3] المصدر نفسه ، 2016 ، ص 08

أضغط على رأسي رغم أن الآلام ببطني . تزداد القرقرة وتزداد معها الآلام . أحس أن مصارين أسفل بطني تتقلص ، وأن صدري يختنق .أجهد نفسي لأتنفس . فاتحا فمي أبحث عن الهواء[1] ."

صوّرت الرواية معالم الفقد واليتم/الحرمان الذي يصنعه الوباء، فكانت صور التشتيت الأسري محلّ المكاشفة، تضاف لها صور الحجر والتخندق في مكان واحد بانتظار شبح الموت الذي يخيّم على مكان واحد دون غيره من الأمكنة وكأن الموت قد اختار أسياده أو أن الأسياد قد اختاروا من سيموت : " لم يحزني فقدان أمي ، في الأسبوع الثالث بعد رسم العلامة ، بقدر ما أحزنني شعوري بالعجز واليأس أمام الموت ، وهؤلاء الذين يقفون خلف الباب يمنعون الدخول والخروج من البيت . يخافون علينا منا . والعدوى تنتشر (لكنها لا تخرج عن حي الصفيح) . "[2]

تتجلّى الصورة الوبائية والوضع الصحي المزري في النص من خلال التقاط نبض الوباء بمخلّفاته الدراماتيكية الكاشفة عن" هدوء جنائزي يغلّف المكان.مندهشا ممّ أرى، أتساءل بداخلي، أين ذهب الناس ؟.أين سكان الحيّ؟.هل ماتوا ؟.هل قضى عليهم المرض ؟.."[3]، لنكون أمام فصل مأساوي وعنوان آخر من عناوين الحرمان ألا وهو تطويق حرية الأفراد وضبط حركاتهم حسب عقارب السلطة الفعلية :" يباغتني أحدهم بصوت حادّ : – ماذا تفعل هنا ؟ – لا شيء. يقول آخر بعد أن انحنى قليلا :– هل معك ترخيص؟ أجيب مستفهما : – ترخيص ؟ "[4] ليصبح الوباء استدمارا يوجب تفتيشا بعد سريان مفعوله وتفشّيه.

أما بخصوص الموقف الرسمي للسلطة وتعاملها مع الوباء المرضي فقد رسم الباث لوحته السردية موضحا الإجراءات التي تم اتّخاذها (تطبيق سياسة الحجر) مبرزا أن: "أعوان الحزب، بأمر من المكتب الثاني ، غزوا منابر مساجد المدينة وتحولوا إلى أئمة مختصين في الوعظ والإرشاد . كان عليهم إقناع الناس بالحجة والبرهان أن الكوليرا ليست عقابا إلهيا ، وأن دفن الميت بسبب الكوليرا دون غسله في تابوت مغلق تجنبا لنشر العدوى لا يتعارض مع قيم الدين الاسلامي ، الذي يفرض على المؤمن أن يحفظ الانسان الحي قبل الميت ، وما الجسد إلا وعاء يحمل الروح ، التي تصعد إلى ربها سابحة في ملكوته ."[5]

[1] عبد الوهاب بن منصور ، الحي السفلي ، ط 1 ، منشورات مدارج ، الجزائر، 2016 ، ص57

[2] المصدر نفسه ، ص 08

[3] المصدر نفسه ، ص 62

[4] المصدر نفسه ، ص 75.74

[5] المصدر نفسه ، 10.09

سعى الكاتب لمشهدة الظرف بالحرف مختزلا صميم الكهف وتصميمه، فيقول على لسان بطله:" إنها تعليمات المكتب الثاني، والحزب الذي يفكر فينا دائما ويدرك مصلحتنا .وبوقه المحمول في سيارة صغيرة بيضاء من نوع رونو 4 لا زال يجوب شوارع المدينة منذ أربعة أسابيع ، ينبه الناس إلى هذا الابتلاء الإلاهي، ويحذرهم من الاقتراب من حي الصفيح، ويعطي تعليماته للإبلاغ عن كل حالة مشبوهة معتبرا ذلك من صميم الوطنية وقوة الايمان ."[1]

ودائما وعبر المتاح البوحي تتكشّف الفجائع وليدة الوقائع، ويظهر أنّ" كلّ شيء جاهز لمواجهة عدوى الكوليرا عدا الدواء .. إنها إرادة الله . ومن يقف ضد إرادة الله ؟ ."[2]

يفضح الكاتب عجز السلطة عن توفير الدواء اللازم لمواجهة الوباء ليكون العذر أقبح من الذنب نفسه بتوجيه مسؤولية ما يحدث إلى الله؛ بتكييف الوباء ليس كمرض يستلزم مجابهته بل على أنّه أمر عصي على العالم السفلي وهو أمر مقدّر لا سبيل لردّه إلاّ باستعمال القوة العمومية وتشديد الحصار على محلّ الوباء والحجر على من فيه، باعتبارهم فاقدين لأهليتهم الصحّية، ولتشيع خطورة ما يحدث بـ" حكايات تتداول في السرّ رهبة من أذن وأعين أعوان "الروخو الفسيان"بالمكتب الثاني ، الذي حضر بنفسه إلى حي الصفيح وأعطى أوامره بالحجر على كل من يشتبه بإصابته بالمرض دون انتظار تقرير الطبيب . "[3]

مرارة الأجواء الوبائية تعاظمت عبر صور درامية وثّقت لمظاهر التشتت الأسري الّذي خلّفه الوباء عبر المشهد الجنائزي الذي صاحب موت أمّ البطل، والقرار الذي منع الدخول أو الخروج من البيت : "موت أمي في ذلك المساء لم يشفع لنا ، أنا وجدتي، من مغادرة البيت ، كما لم يشفع لأبي ولا لأخي من الدخول ."[4]

قرار المنع لم يشمل حركة الأفراد فقط بل تعداه ليكون دفن من فقد الحركة/الحياة من اختصاص السلطة الوصية، وهو ما ظهر من خلال سؤال الجدة لمساعد الطبيب الهندي :"هل دفنتموها ؟ – نعم . تخفي جدتي عينيها بين كفّيها تشهق باكية . تحاول ضبط بكائها. "[5]

[1] عبد الوهاب بن منصور ، الحي السفلي ، ط 1 ، منشورات مدارج ، الجزائر ، ، 2016 ، ص 09

[2] المصدر نفسه ، ص 09

[3] المصدر نفسه ، ص 10

[4] المصدر نفسه ، ص 15

[5] المصدر نفسه ، ص 27

صورة العجز عن دفن ضحايا الوباء المرضي "الكوليرا" لوحة سردية موجعة تؤكد عمق الأزمة الصحية، وتعاظم حجم الكارثة الّتي بدت من نصيب حيّ دون آخر، وهو الأمر الّذي أنتج عديد التأويلات والسجالات حول حقيقة ما يحدث ، وهل هو أمر مدبّر؟.

إنّ الحدث المرضي محلّ المعالجة عينة وبائية تبرز تفاصيل أزمة صحية معيشة بتداعياتها الجلية والمتوارية مما فتح بالتأكيد الباب بالنسبة للمشككين في الوباء وخطورته الظرفية والمستقبلية جاعلين من نظرية المؤامرة عنوانا اعتقاديا لديهم، فما كان من البطل إلا التصريح بقوله: " ليس بمقدوري أن أتخيّل أن المرض مجرّد خدعة . ربّما لأنّي عانيت بنفسي آلامه وما زلت ."[1]

ب/المخدرات: أشار الكاتب مستشرفا كعادته – (الكوفيد**2019**/غلق الحدود المغربية **24 أغسطس 2021**)– إلى خطر وبائي آخر ينخر الوطن والمواطن على السواء "متذكرا أن السور به بعض المنافذ، التي يستغلها مهربو المواد الغذائية والمخدرات للحدود الغربية.."[2]

تشكّل آفة المخدرات وباء مرضيا يزلزل كيان المنظومة المجتمعية والصحية ، ليكون البطل نموذجا سرديا أراد الباث من خلاله التلويح بخطورة الوضع واستفحاله بين الشباب:" لففت سيجارة حشوتها بالكيف. تفنّنت في لفّها كعادتي. الصّنعة التي أجيدها.أخذت أنفاسا طويلة ومتتالية .ملأت قفص صدري وحبست أنفاسي تاركا الدخان يتسلل عبر عروق دمي، متلذذا بالخدر الذي بدأ يسري في كامل جسدي."[3]

تبرز اللّذة الواهية ويتجلّى مفعولها المخرّب للصحة النفسية والعقلية، حتى أضحى الشباب غير واع لا بالزمن ولا بالمكان ولا بما يحدث حوله من أحداث: " في غيابها أنام النهار، أمّا اللّيل فكان لي، ولحياتي التي أعيشها كطائر الخفاش، لا يرى ولا يخرج إلاّ في الظلام، لكني لا أخرج عن الحيّ السفليّ . كقاطع طريق ، أبحث عما يذكّرني أنّي إنسان له رغباته ونزواته ، خارج قارورات الخمر الرخيص والكحول المهرّب والسجائر المحشوة بالكيف ."[4]

يبرز الوباء المرضي المتمثل في المخدرات كأحد الأخطار الإستراتيجية الواجب التصدّي لها ومواجهتها باعتبارها أحد الأدوات الكفيلة بجعل مجتمع بأكمله خارج سرب العقل والمعقول قبل فوات الأوان وقبل أن

[1] عبد الوهاب بن منصور ، الحي السفلي ، ط 1 ، منشورات مدارج ، الجزائر ، ، 2016 ، ص 74

[2] المصدر نفسه ، ص 193

[3] المصدر نفسه ، ص 13

[4] المصدر نفسه ، ص 206

يصحو الشاب من نشوته الزائفة شيخا هرما "مكتشفا ، أن لا شيء تغيّر بالحيّ ، رغم أنّي لم أره نهارا من سنوات . وأدرك،بعد فوات الأوان،أني لست سوى شخص يعيش على الهامش متتبعا نزواته، ولم يهتمّ أبدا بغير نفسه ."[1]

ساهمت رواية"الحي السفلي" في توضيح الصورة الوبائية بكلّها وجزيئياتها التي بدت أزمة صحية بدءاً من خلال الإشارة إلى تداعيات الكوليرا – (نموذج مرضي رمزي) – على الفرد والأسر والمؤسسات السياسية والعسكرية والصحية والدينية ، كما دعت إلى تجنيد وتسخير جميع الامكانيات اللازمة لمحاربة تعاطي المخدرات وسط المجتمع ومجابهة تهريبها .

المطلب الثاني: الوباء السلطوي..لم تكتف الرواية بالوباء المرضي بل أنّها امتازت بشمولية النظر في مجريات الساحة المعيشية، لتظهر صورة أخرى ثانية من صور الوباء، بيد أنه من نوع آخر أكثر خطرا وفتكا ألا وهو الوباء السلطوي الذي تضمن أربع بؤر تنخر الوضع العام وتزيد من تهالكه .

أ . الوباء السياسي : يعدّ الوباء السياسي أول حلقات الوباء السلطوي الذي يُظهِر السياسة ومن يسير في مدارها في جوّ منذر بالانفجار نتيجة التفرد بالرؤية والحكم منذ مسك الزمام من لدن ما يعرف بـ

1. النظام : تتجلّى جرأة الكاتب في تشريح الأبعاد الوبائية وتطرّقه إلى النظام الجزائري، وعرض ما فيه من تفاصيل مسكوت عنها تأكيدا منه على خطه التنويري الراغب في تغيير نواميس الحركة النظامية نحو آفاق أخرى واعدة تستوعب جميل الآمال والأحلام؛ فيقول على لسان العربي المونشو أحد مؤسسي النظام: "فبعد سنوات ثلاث لنظام لم يجد طريقه، بعد استقلاله عن الاستعمار،كان لزاما تجديده . وهو ما حدث فعلا وسقط الزعيم سقوطا حرّا لم يفهمه الشعب المتعلّق به وبتاريخه. لا أنكر أنه كاد أن يتحول إلى أسطورة أبدية ، فكان علينا تقزيمها وتقليص حجمها، فعملنا على استبدالها، كخيار أخير، بأسطورة أخرى، وجاهدنا لتقديمها في صورة مكتملة،لأجل استقرار النظام وكسب ثقة الشعب ."[2]

تتراءى الأفعال الخمسة التي يلتزم بها النظام كخطوات إجرائية تحدد قاطرة رؤاه الآنية والتالية، فكان : التجديد، التقزيم، تقليص الحجم، الاستبدال، اختيار النموذج الأسطوري بمثابة أفعال للحكم والسيطرة والتوجيه الممنهج ، ولكن تبيّن أن هذا الطريق الأحادي فيه من الخطر ما يجعله وباء ووبالا على الجميع ، حيث يضيف النموذج الذي كان مع النظام في زمن ما بقوله: " الآن ،وبعد هذا العمر الطويل،أكتشف كم كنّا

[1] عبد الوهاب بن منصور ، الحي السفلي ، ط 1 ، منشورات مدارج ، الجزائر ، ، 2016 ، ص 255

[2] المصدر نفسه ، ص 210.209

أغبياء وبؤساء.كان بإمكاننا أن نلجأ إلى أفضل الطرق وأسرعها تاركين الشعب يختار أسطورته، ويتحمل تبعات ذلك.لا أعرف لماذا علينا دائما أن نكون أوصياء على الناس ! ولا لماذا نفكر بدل الآخرين ونعتقد أن تفكيرنا هو الأصحّ ! أتساءل الآن وبعد هذا العمر ،حتى لا أقول بعد فوات الأوان ، من وهبنا هذا الحق ؟ من نصبنا آلهة على العباد نتحكم في عقولهم ومصائرهم؟ " [1].

أسئلة تشرح وتشرّح طبيعة نظام أراد النص الروائي مكاشفته وكشف طبيعة أنانيته التي قاربت حدود التقديس، والتي جعلت من قاعدة من ليس معي فهو ضدّي نبض الحياة بينهم: " بعدها أدركت أنّه عليّ أن أتوغّل أكثر ما أستطيع في نظام مبني على تصفية كلّ من يرد اسمه على مسامع الأسطورة أو حاشيته. ولم تبن، تلك التصفيات، على محاكمات عادلة ولا على تحقيقات. فمنهم من مات في حادث سيارة، ومنهم من انتحر، وقليل منهم تم سجنه وتعذيبه أو تمكّن من الهرب ."[2]

تفصّل الرواية في الطابو السياسي، حيث تنقل القارئ نحو عوالم السياسة الموبوءة المتغنية بالحقيقة قولا الماقتة لها فعلا ليصير ألم التعذيب عنوان حياة لكلّ مخالف " ليس في مقدوري أن أتخيّل إنسانا يتلذّذ بتعذيب إنسان آخر . يبتهج حين يتألم الآخر ، حتى وإن كان ذلك بدافع البحث عن الحقيقة . الحقيقة المهملة بعيدا وخارج آلام الجسد ."[3]

يظهر الوباء السياسي وهو في كامل عنجهيته يمارس سلطته على الأجساد المارقة والخارجة عن السرب، فقد لقي البطل بفعل اختياره لتاريخ عيد الاستقلال موعدا لانتحاره ما لقيه من ألم وهو لا يدري حنكتهم في النسج.

2 . السيناريو المطبوخ : بمجرّد فشل البطل في تحقيق غايته الانتحارية وجد نفسه مطاردا محصورا بين بين مطرقة الموت وسندان الألم ، لتكون فعلته تلك فرصة له حتى يتعرّف على تفاصيل ومشاهد ذلك الذكاء السلبي الذي احترف فن طبخ الأحداث : "– عليك أن تعرف أنك شخص مريض.مجنون حاول الإنتحار، وقمنا بنقله إلى المستشفى للعلاج لكنه هرب، ولا أحد يعرف إلى أين ذهب "[4] .

[1] عبد الوهاب بن منصور ، الحي السفلي ، ط 1 ، منشورات مدارج ، الجزائر ، 2016 ، ص 210

[2] المصدر نفسه ، ص 214

[3] المصدر نفسه ، ص 98

[4] المصدر نفسه ، ص 104

وليتواصل مع"أحمد القط" عرض مجريات ما سيحدث له : "– هذا يعني ، أنه بعد أن ننهك جسدك ، سيجدونك في مكان ما ، ميّتا ، لأنك انتحرت .. فيضيف الصوت من خلفي هازئا : – بإمكانك أن تقول لنا في أي مكان تحب أن نرمي جثتك . سنعمل على تنفيذ وصيتك ."[1]

يحاول النص الروائي أن يصدم القارئ بما يعرف وبما لا يعرف على اعتبار أن الرواية في أبسط تعريفاتها هي قول ما لا يقال ، والكاتب قد زاد من وتيرة جرأته البوحية جاعلا المشهد السردي مثقلا بالحقائق المغلقة خلف المكاتب : " نعرف أنك تحب المقابر . لا عليك ، سنرمي جثتك بمقبرة المدينة ، وهكذا سيقول الناس ، أن أحمد القط، انتحر بالمقبرة وسهّل على الناس دفنه . لكن لا تحلم بذلك الآن ، فموتك لن يكون بهذه السهولة ولن يكون قريبا ."[2]

بين الحقيقة والخيال وبين الحياة والموت وبين اللّذة والألم وجد بطل الرواية نفسه غارقا في وباء السياسة من حيث لا يدري، متجرعا لمرارة الصمت كملاذ وجودي بعد أن أدرك أن موته الاختياري قد تأجّل ليجني عليه جناية وضعته بين كفي المجهول .

يشرح البطل واقعه التعيس بالقول أنّ " الحقيقة التي عندي لا تقنعهم . عليّ أن أصمت حتى يتفوهوا بها ، يملونها عليّ ، حين ذاك سأعترف بها . لا يهمني الاعتراف ولو كذبا ، بما أن اعترافي قد صدر وتقرّر قبل بداية الاستجواب . تقاريرهم مكتوبة لا تنتظر بصمتي وموافقتي ."[3]

إنّ الرواية محلّ المساءلة النقدية ما هي إلاّ عينة رمزية تخييلية يراد بها ومن خلالها تطبيب المرض الوبائي المستشري في الجسد السياسي، لإصلاح ما يمكن إصلاحه درءا للمفاسد وتصويبا للمآل الظرفي .

ب – الوباء العسكري : وظّفت الرواية عصب الحكي المبني على هندسة الأحداث المترابطة فيما بينها ككتلة إيحائية تستثمر الفنّ لتحقيق المراد البوحي سعيا لملامسة الواقع والتيقن من مواطن الوباء الّذي استشرى والجزائر في بدايات عهدها بالاستقلال: "حناجر عدد كبير من الأطفال بحت وهي تتدرب على الهتاف صارخة : يحيا بومدين، جيش، شعب، معك يا بومدين ."[4]

[1] عبد الوهاب بن منصور ، الحي السفلي ، ط 1 ، منشورات مدارج ، الجزائر ، 2016 ، ص 104

[2] المصدر نفسه ، ص 105

[3] المصدر نفسه ، ص 112.111

[4] المصدر نفسه ، ص 246

تتجلّى معالم التلقين والاصطفاف حول الحاكم العسكري، وما نموذج العربي المونشو إلاّ مثال رمزي يجسّد حال من كان يوما ضمن مهندسي دواليب الحكم وتم إخراجهم منه، ولكن من عنق الزجاجة .

حاول المتن تجسيدا لمعنى الحقيقة المقصاة أو المبتورة عن الحكي أن يعرّي الواقع سرديا ويشرح تفاصيل تطوراته التي تبقى مثارا لعمل فكري طويل الأمد : "يتطلّع إليّ بغرابة ،وقد فقد حيويته وابتسامته، ثمّ يضيف مؤكدا :إنّ أيّ نظام بائس ، إذا طال حكمه ، فلا بدّ أن يفرز شعبا بائسا ، لا ترجو منه غير البؤس والطمع، فالخروج من ذلك ليس أمرا سهلا ويتطلب أزمنة وأجيالا متعاقبة ."[1]

تتراءى خطورة الأبعاد الوبائية المترابطة/المتسلسلة والتي تجرّ بعضها بعضا وتجرّ البلاد والعباد نحو عوالم متأزمة خصوصا عندما يصير الوفي خائنا وفي لمح البصر: "كنت أعلم أنّ كلّ هذا سينتهي برصاصة في الرأس، أو جثة هامدة في سيارة بعد حادث مرور مفتعل لكن أوامر عليا جاءت باغتيالي رمزيا بدل اغتيالي جسديا، وهو ما يعني أن مكوثي سيطول، وربما سؤنسى في إحدى الغرف المظلمة، إلى أن يتمّ تشويه صورتي وامتصاصها من كلّ عمل للوطن أو حبّه ."[2]

تتجلّى محطات التقزيم الممنهج وتظهر شهادة الوفاة المعنوية أو المادية تنتظر فقط إشارة إصدارها: " لقد استكثروا فيّ الموت ! الموت محافظا على كلّ تاريخي ! بعد ثلاث سنوات ، وحين أطلق سراحي لم أجد نفسي التي أعرف ! لقد صرت شخصا آخر ! شخصا باع نفسه ووطنه وكلّ شيء لعدوّ خارجي ! حتى كدت أنا شخصيا أن أصدّق ذلك ! والمؤلم أني خرجت بيد مقطوعة ، بعد أن تعفنت جراء جرح ، بدا في الأول بسيطا ،لكن في ظلّ الاهمال الذي عانيته لمرض السكري،فقد استأصلوا يدي ليزيدوا من ضعفي وعجزي ."[3]

دراماتيكية الوباء العسكري توحي بخروج الأمور عن قواعد السلامة العامة ، وإن كان بطل الرواية"أحمد القط" عطوفا رحيما بالقطط فإنّ الرّحمة عطاء إلهي صورته الرواية خاصا بالمدنيين فقط ، ولم يشفع للمونشو الّذي لم يكن مونشو التنعم به وهو المنتمي للسرب الحاكم ..بيد أنّه بمجرد أن وقع في زوابع الخلاف وجد نفسه يجرّ أذيال البتر المعنوي والجسدي معا.

واصل المتن الروائي عرض السيرة الوبائية وهي تتفنن في البلاء والولاء رغم خطورة البوح وجرأته إذ يتراءى صديق البطل خائفا مما هو مقدم على البوح به: "يصمت ،ويلتف ناحية الباب،ثم يهمس وبصره معلق

[1] عبد الوهاب بن منصور ، الحي السفلي ، ط 1 ، منشورات مدارج ، الجزائر ، 2016 ، ص 209

[2] المصدر نفسه ، ص 219.218

[3] المصدر نفسه ، ص 219

بالباب، كأنه يخشى من أن يسمعه أحد غيري، أنّ هذا البيت،يتحوّل في الليل إلى مكان يجتمع فيه"الفسيان"نفسه مع رجلين آخرين ونساء كثيرات،يشربون ويسكرون ثم يرقصون قبل أن تتعرى النساء حتى الصباح، لكن منذ ثلاثة أيام لم تظهر النساء،واكتفوا بجلب أربعة رجال،على وجوههم أكياس من الخيش، وعرّوهم من لباسهم ثمّ ربطوهم إلى كراسي خشبية ، وعذبوهم ضربا وصفعا وركلا .ثمّ هدّدوهم بقطع أعضائهم إن هم عادوا للتظاهر."[1]

تتجلّى عوالم العربدة والمجون كمتنفّس يطبع الأجواء الحياتية لبعض من هم في الفلك السلطوي ، كما يظهر فعل التظاهر كأحد موجبات تحرك"الروخو الفسيان" ومرافقيه (القوة الردعية) من أجل إرجاع من فقد بوصلته إلى جادة السكوت والسكون .

يستنتج من الرواية أنّ فعل المعارضة في الرأي يعدّ فعلا ممقوتا في نظر الآخر العسكري الّذي لا يودّ إلاّ من يحترف المداهنة وشعار الوي الوي كعنوان حياة لمن أراد الحياة ، لدرجة أن "صار الجميع يخشى الروخو. لا أحد من المسؤولين المحليين يجرؤ أن يعارضه ولو في الرأي. يقولون أن معارفه من المسؤولين المركزيين لا يتخلّون عنه مهما فعل ."[2]

ج/الوباء الديني : أبدا لم يكن الدين عنوان مرض بل كان وسيظل دوما عنوان صحة وعافية ولكن المقصود بالوباء الديني هو كلّ فساد/مرض سكت عنه المشتغلون بالدين أو من كان عملهم مندرجا في السياق الديني إذ أنّ الزيغ عن المسار والوجهة الدينية السليمة هو مكمن الوباء وموطنه .

واصل المتن الروائي عرض الأبعاد الوبائية التي انتشرت في أهمّ الميادين لتجدها أيضا في المجال الديني الّذي لم يسلم بدوره من الظاهرة، على اعتبار الاحتكاك المباشر بين الشعب والسلطة الدينية ممثلة في المؤسسة المسجدية، وما لها من دور فعال تلعبه على جميع الأصعدة .

يؤدّي الإمام وظيفته الاجتماعية باعتباره حاملا لكتاب الله وأمانته، ساعيا لنشر الوعي وبثّ التعاليم التي جاء بها الدين الإسلامي جهرا بالحق واتّباعا له ، إلاّ أنّ الرواية قد أشارت إلى أنّ " إمام الجامع الكبير اختفى منذ أسبوعين ، بعد خطبة مثيرة عن العدوى كعقاب إلهي لمجتمع ابتعد كثيرا عن الدين وشريعته السمحاء ، خالف وعود شهدائه . وكثرت بشأنه الحكايات ." [3]

[1] عبد الوهاب بن منصور ، الحي السفلي ، ط 1 ، منشورات مدارج ، الجزائر، 2016 ، ص 205.204

[2] المصدر نفسه ، ص 173

[3] المصدر نفسه ، ص 10

غياب الإمام عن الأنظار مباشرة بعد تقديم خطبته التي حاول بها النصح والإرشاد جعل منه عنوانا استفهاميا لدى الرأي العام الّذي تساءل عن سرّ غيابه المثير ، وهو ما مثّله سؤال الجدة " وهل ظهر الإمام؟ – ظهر منذ أيام فقط، ليخطب في الناس. لقد أكّد أنّ كل من مات بالوباء فهو شهيد ،بمن فيهم الطبيب الهندي . لا أحد يعلم أين كان كلّ تلك الأيام.لقد تغيّر كثيرا. – تغيّر ؟ كيف؟ تقول جدتي مستفسرة

– لم يعد يرَ الوباء عقابا إلهيا ،إنما ابتلاء . ابتلاء من الله .ابتلاء على الصبر.وما يحيّرني،أنّه صار يمدح السلطات والمسؤولين ويشكرهم على كل ما فعلوه لمصلحة الناس..حتّى أنّه جعل شكرهم من شكر الله."[1]

كيف يمكن تفسير سرّ انقلاب رأي الإمام من النقيض إلى النقيض؟ وكيف لمن عرف الحقّ أن يغضّ الطرف عنه ويخرس ؟ وهل يعدّ انقلابه هذا تصحيح رأي أم أنّه شعار حياة ؟

أكّدت الرواية على أنّ الوباء الديني أحد الأوبئة المنذرة بهلاك الأمم والمجتمعات ، "فالإمام نفسه ، لم يقل شيئا عن اختفائه، عدا أنه كان مريضا ومحجورا عليه هو الآخر . وقد تكفّل به الطبيب الهندي ."[2]

تصوّر أحداث الرواية أن إمام الجامع قد صار موظفا يبتغي رزقا وهو مستعد لأن يكون رهن الإشارة متى طلب منه ذلك ولو على حساب الدّين : " يقول أبي، موجها كلامه لي ولجدتي : – لم تروا كلّ ما حدث .كان الموت بالحي يأخذ من يشاء،حتى الأطباء والممرضون.مسكين الطبيب الهندي لم يتفطن لمرضه حتى مات. قيل أنه أسلم ونطق بالشهادتين لحظات فقط قبل أن يفارق الحياة، لذلك قرّر الروخو الفسيان دفنه بمقبرة المسلمين. طبعا لا أحد يملك القدرة على الرفض أو المعارضة خاصة بعد أن أفتى إمام الجامع الكبير بوجوب دفنه مع بقية المسلمين ."[3]

تعدّ حادثة الطبيب الهندي المشكوك في إسلامه وموته دليل إثبات على مهادنة الإمام التّامة وخضوعه لكل الإملاءات المفروضة عليه ، كما شكّل موت أخ البطل لغزا محيّرا خصوصا بعد وصول خبر انتحاره المشكوك فيه إلى مسامع الجميع ليبرز للقارئ ترمومتر تحوّل الإمام جليا ؛ حيث أنّه " مساء يرفض الفقيه أن يقيم صلاة الجنازة على المنتحر ، فيصدم الخبر جدّتي فتدخل في غيبوبة. لكن " الروخو الفسيان"يتدخّل وتقام الصلاة ."[4]

[1] عبد الوهاب بن منصور ، الحي السفلي ، ط 1 ، منشورات مدارج ، الجزائر ، 2016 ، ص 171

[2] المصدر نفسه ، ص 172

[3] المصدر نفسه ، ص 171.170

[4] المصدر نفسه ، ص 263

تأتي الرواية لتبرز الخطر الداهم الناجم عن الوباء الديني ، حيث يعتبر الدين عنوان حق يعلو ولا يعلى عليه ، وكلّ مساس به أو توظيف له بغية تحقيق مصلحة ما هو وباء ووبال على من تعدى عليه .

د/الوباء الإعلامي : يمثّل الإعلام أحد الركائز الأساسية التي تساهم بثقلها في التأثير على الرأي العام داخليا كان أو خارجيا، وهو مجال حيوي مساعد على التفاف اللحمة الشعبية حول القضايا المصيرية.

يعد الجانب الاعلامي سلاحا ذو حدين فمثلما باستطاعته توجيه الرأي ودعم طرف على الآخر بإمكانه أيضا إنزال من كان في عليائه لسابع أرض، وجاءت رواية الحال لتحذر من خطر وصول الوباء للساحة الإعلامية وما ينجر عن ذلك من توابع سلبية على الأفراد والمجتمعات .

قدّم النص الروائي نموذج العربي المونشو كأحد المصابين بآثار الوباء الإعلامي الّذي شوّه من سمعته ، حيث "يؤكد أنه وجد نفسه وحيدا يسير ضدّ التيار،وكلّ الأصابع تشير إليه أينما ذهب،وقد اتهمه كثير من الناس بمن فيهم المقربين إليه بالخيانة.خيانة الوطن ورفاق السلاح وكلّ التاريخ الذي صنعه لنفسه كمجاهد ومناضل وكسياسي .معترفا أن تصديق رواية النظام،الذي يحسن الترويج وصناعة الرأي حسب الطلب والرغبة ، آلمه كثيرا وأكثر من أيّ شيء آخر."[1]

يبرز"العربي المونشو" كأحد ضحايا الرأي ، تصوّره الرواية مكتوٍ بنيران كانت ذات يوم صديقة، فإذا بها تلفح اسمه وتاريخه النضالي معا، بيد أنّ معدنه قد جعله ينصح البطل "أحمد القط" بالقول : "– احذر أن تكون بيدقا ، فلا شيء يدوم ."[2]

تبقى المواقف والمبادئ عناوين حياة تأبى أن تتحوّل أو تحيد رغم حرائق المكائد وهول تزييف الحقائق، لتكون النصيحة موجهة للبطل ومن ورائه لكلّ قارئ مستكشف لأغوار النص/الحياة .

المطلب الثالث: الوباء المجتمعي..يشكل النص الروائي عنوانا تضامنيا مع المنسيين ضحايا أزمة السكن الموجودين بين مطرقة الصفيح وسندان الجرافات، حيث يعدّ الموضوع المتطرق إليه واحدا من بين المواضيع الشائكة التي تقتضي معالجتها ، وليكون تسليط الضوء على المعذبين في الأرض وعلى جيل بأكمله رآه الكاتب/المثقف قد كبر في الظلّ خارج اهتمامات المسؤولين اللّذين عجزوا عن توفير الحياة الكريمة لمواطنيها :"لم يكن أمامنا من خيار غير التزام بيوتنا ،حتى نعرف مصيرنا.وإلى أين يتمّ ترحيلنا ؟ لا أحد يملك الإجابة عن ذلك.وليس من السهل أن تثق وعود أشخاص يجلسون على كراسي جرافاتهم

[1] عبد الوهاب بن منصور ، الحي السفلي ، الطبعة 1 ، منشورات مدارج ، تلمسان ، الجزائر ، 2016 ، ص 195

[2] المصدر نفسه ، ص 197

وشاحناتهم، ولا يفكرون إلاّ في مسح حيّ بكامله، تنفيذا لأوامر جاءت من سلطات مركزية ، لأنّه يشوّه منظر المدينة ، وينتج ويؤوي كلّ أنواع الفساد."[1]

صعوبة الظروف الاجتماعية المعيشية لم تكن أبدا مدعاة للتواري خلفها والتحجج بها بل يمكن لها أن تكون حافزا للتغيير نحو الأفضل ، و"الحي السفلي" يؤكّد أن أبناءه لم تمنعهم ظروفهم من التعلّم وممارسة فعل الحياة، يقول البطل: "لكننا لم نتهاون في دراستنا ، ولم ننس أنه علينا أن ننجح في امتحان الباكالوريا ، إذا ما رغبنا في حياة خارج الحيّ إيكس ، الّذي فعلا صار ماخورا كبيرا ، ممّا جعل كثيرا من العائلات تكتب أسفل علامات إيكس بخط عربي أو فرنسي : هذا منزل شريف .هذا منزل شريف ، الجملة التي كانت تثير ضحكنا كلما قرأناها بعد أن اكتشفنا أنها مرسومة على جدران بعض المنازل بالحيّ الشرقي لمدينة تلمسان . ثمّ أدركنا أنّها مواخير سرّيّة. لم نتردّد في ارتيادها نهايات الأسبوع، واكتشاف أجساد نساء جميلات يدخن مبتسمات."[2]

يسعى النص الروائي إلى إبراز الفوارق المجتمعية التي تكون نتيجة وتحصيلا حاصلا لما جادت به اجتهادات القائمين عليه ، إلاّ أنّ كارثية الأوضاع تجعل من الصعب التمييز البون التضادي مجتمعيا فيظهر" الجسد كالمجتمع مقسّم إلى مراتب ومنازل، فمنه الرفيع ومنه الوضيع. تراتبية الجسد واضحة تبدأ بالأعلى،أي الرأس، وتنتهي بالأدنى، أي القدمين.الأعلى أرفع منزلة من الأدنى. "[3]

ويبقى المجتمع رهينة ونتاج صانعيه، فيمكن للظروف القاهرة أن تنتج للمجتمع إطارات وازنة قادرة مثلما لها من الحرمان والظلم ما يجعل من أجمل امرأة أن تصيرة عاهرة .

أ – **الوباء الأخلاقي** ..رسمت الرواية عديد التجلّيات الوبائية والتي مسّت أيضا الجانب الأخلاقي الّذي صار قاب قوسين أو أدنى من التهالك النفسي/الاجتماعي، حيث تتراءى العلاقات الانسانية خارجة عن نطاق الدين الاسلامي بعيدة عن احترام النظام العام والآداب العامة ، لتتجلّى معالم العلاقات الحميمة سيّدة المجال، وليظهر تعويض الرباط المقدّس بين الرجل والمرأة برباط آخر مدنّس لا يعترف إلاّ باللّذة الظرفية : "أحاول أن أقنع نفسي بأن علاقتي بها لم تكن غير علاقة عابرة . علاقة جسدين أرهقهما الظمأ . ولا أنكر أنّي تشبثّ بالحياة بعد أن تشبثّ بها . بجسدها الذي منحني ما لم تمنحني إيّاه جميلة . منحني رغبة

[1] عبد الوهاب بن منصور ، الحي السفلي ، ط 1 ، منشورات مدارج ، الجزائر ، 2016 ، ص 177.176

[2] المصدر نفسه ، ص 253.252

[3] فؤاد إسحاق الخوري ، ايديولوجيا الجسد رموزية الطهارة والنجاسة ، ط 1 ، دار الساقي ، لبنان ، 1997 ، ص 03

الاكتشاف . اكتشاف اللذة والمتعة في أقصى صورهما. وأنا الحالم دوما بامرأة تقاسمني فراشي وسيجارتي وكأس نبيذي." [1]

تصوير الرواية لهاته المشاهد تأكيد على تحوّل رهيب مسّ ويمسّ الكتلة المجتمعية وتحديدا الشباب، فلماذا يكتفي الشباب بالعلاقات المحظورة عوض العلاقات الرسمية؟ ولماذا صار الفراش الملاذ المشترك للجنسين؟ ومتى كانت السيجارة وكأس النبيذ وامرأة عابرة طيف الحلم ومنتهاه عند الشاب الجزائري ؟..أسئلة تستدعي تحرك النخب العالمة كما الراسمة للمسار المجتمعي من أجل معالجة مشاكل تنخر أخلاق المجتمع وتصيبه في الصميم، لأنّ الفطرة السليمة وما تمليه عناصر الهوية الجزائرية كفيل بإخراج الشباب من النفق المظلم الّذي يحتويه ؛ " – أشعر بالاختناق . تصحو من دهشتها على كلامي . متذمرة تبحث عن ثيابها ، ثم تقول بعصبية : – طبعا..تشعر بالاختناق بعد أن قضيت أشياءك الحيوانية ."[2] يؤكّد البطل احتقانه واختناقه من الجوّ الموبوء مصرّحا ومواجها به من قاسمته الهروب من الواقع ، ليكون جوابها كفيل بيقينها من صحوته الغرائزية، خصوصا بعد معرفة" أن المتعة الجنسية لا توقظ الأهواء كلّها؛ بل ينبغي عليها، في المدى البعيد، أن تطفئ بعضا منها..." [3]، وهذا ما تجلّى من تصرّف البطل الّذي ضاق ضجرا من علاقته بالآخر تجسيدا لخفوت نار الشهوة بينهما.

ب – الوباء الفكري..تزداد خطورة الوباء إذا اتصل بالفكر، ويزداد حجم الضرر ويتوسع ليشمل أجيالا متتالية سترضع ثدي الخيبات الناجمة عن تلوث الفكر وانحرافه، وما الأمثلة السالفة الذكر إلاّ ثوابت رمزية أراد الكاتب الاستدلال بها حتى يكشف الأسباب والعوامل التي أدّت لبلوغ الأبعاد الوبائية كلّ هاته المستويات.

لا ينكر دعم الدولة الجزائرية لأبنائها إلاّ جاحد، ولكن هنالك حلقات مفرغة تهوى العيش في المستنقعات الآسنة فكيف لطالب جامعي منحته دولته منحة دراسية من أجل أن يدرس بالخارج أن يعمل نادلا؟ ولماذا تكون المطالبة بالحقّ استدعاء عاجلا للموت ؟ ؛ :"لكني لم أفهم لماذا، وأنا أقرأها على جدتي، أوقفتني عند خبر، أنّ الروخو الفسيان، الّذي لم نراه منذ زيارة الرئيس، زاره عدّة مرّات، بعد أن تمّ تعيينه بالسفارة، مقترحا

[1] عبد الوهاب بن منصور ، الحي السفلي ، الطبعة 1 ، منشورات مدارج ، تلمسان ، الجزائر ، 2016 ، ص 148

[2] المصدر نفسه ، ص 149

[3] أندريه لالاند ، موسوعة لالاند الفلسفية ، المجلّد الأول A–G ، ترجمة خليل أحمد خليل ، الطبعة2، منشورات عويدات ، بيروت ، 2001، ص 1567

عليه مساعدته في أيّ شيء يحتاجه لأنهم لم يتلقّوا منحهم المالية منذ شهور، لذلك اضطر للعمل كنادل بأحد المطاعم ليلا ."[1]

تكشف رسالة أخ البطل عن سرّها حيث يظهر أن الروخو الفسيان قد قام بتحويل أموال الطلبة المخصصة لهم لمصلحته الشخصية، وبمجرد أن تم مطالبته بها قام بتصفية السائلين ، ليكون الفكر والمفكر ضحية عصب ترى في العالم والمتعلم صندوق ضجيج لا أكثر، ولا يهمها منهم إلاّ الخنوع والخضوع ليس إلاّ . أشارت الرواية أيضا إلاّ ذلك التحوّل الفكري الرهيب الّذي مسّ شريحة الفلاحين ، حيث كان تغيير النمط الاقتصادي عنوانا محفزا لهم لتغيير النشاط ، فحلم الفلاحة والاكتفاء الذاتي بخّرته شعارات التصنيع الباهتة : " في الطرف الشرقي للحيّ السفلي ، أعمال البناء تكاد تنتهي . البناء،الذي أقيم على حقل زيتون تمّ طليه بلون أبيض،بقببه الثلاث وصومعته الصغيرة،لم يكن مسجدا كما توهّم سكان الحي ، بل معملا للصناعات التقليدية . المعمل، الذي فتح شهية كثير من الفلاحين لترك أراضي الثورة الزراعية وضمان عمل مستقر بعطله الأسبوعية والسنوية ، ولا ينتظرون معه سخاء السماء ليقبضوا ثمن تعبهم ."[2]

سعى الكاتب بروايته إلى إسماع صوته لكلّ القارئين والفضوليين، ولكلّ الماسكين بحلقات الحكم تحذيرا منه وتوثيقا لأهوال ما حدث ويحدث ولكونه لم يعد قادرا على أن يصير محلّقا في سماوات الرضى والتراضي فيقول : "أعرف أن صوتي لن يذهب أبعد من أذني، لكني أحتج. أحتج كتعبير أني أفعل ما عليّ فعله. كفعل أني حيّ. لا أبحث عن تبرير الفعل ولا تعظيمه، بقدر ما أبحث عن راحتي. راحة نفسي.الراحة التي تحولت إلى معاناة.معاناة عاجز.وجع مزمن.هل بإمكاني أن أتحمّل كلّ هذا ؟ "[3]

يكون التفكير العقلاني أحيانا سببا في تعاسة المثقف الذي يعيش حالة إغتراب بين ما يفكر فيه ويعتقد به وبين ما يسيّجه من أحداث وصور تجعل من العجز والوجع ثمات نشازية تؤرق واقعه، وتشوّش فكره الذّي سطع، بيد أنّ ثمن الحقيقة متعب "إن العقل الانساني، بإشراق من الله، يقدر على بلوغ معرفة صحيحة عن الأشياء التي يدركها بالحواس. فهناك إذن تعاون ضروري بين العقل الإنساني، والحواس، والاشراق الإلهي، من أجل معرفة الحقائق"[4].

[1] عبد الوهاب بن منصور ، الحي السفلي ، الطبعة 1 ، منشورات مدارج ، تلمسان ، الجزائر ، 2016 ، ص 260.259

[2] المصدر نفسه ، ص 245

[3] المصدر نفسه ، ص 160

[4] عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة الجزء الأول من أ إلى س ، الطبعة1، ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، 1984 ، ص 250

اختار الكاتب سبعة عبارات أنهى بها روايته التي اعتصرت وجعه الساكن، وعجزه عن فعل ما يطمح إليه ، فكانت آخر عبارة منها تصريحه المعترف : " أقول: ليس هذا هو المكان، الّذي حلمت به، مثل كلّ الأحلام الأخرى، لكنّي سأعيش فيه ببلادة وغباء، مدركا أنها ستكون أعواما طويلة ."[1]

واقع يناقض الأحلام وجميع المرئيات تشي بأن الأمور ليست على ما يرام، ولكنه وصل إلى قاعدة أقرّ بتطبيقها من الآن فصاعدا ألا وهي اختيار البلادة والغباء كعنوان هروب إلزامي لكلّ المتوجّعين والمتأوّهين من تفسّخ الأوضاع ووبائيتها حتى يطول عمره لأنه أدرك أنّ العكس غاية في الصحة .

الخاتمة:

– رسمت الرواية لمشاهد سردية تحاكي الواقع وتنتقده عبر منافذ أسلوبية سهلة ممتنعة، بتوظيفه لشخوص روائية وأمكنة دلالية وسلطات رمزية تلخّص الحال والمآل .

– سعى البطل" أحمد القط" إلى لعب دور الشاب الحالم الفاهم الناقم على الصورة العامة للوضع، وعلى المصورين .

– ضرورة اختيار القرار الصائب عنوان حياة أخرى وأي خطأ في الفعل يترتّب عنه عواقب لا متخيّلة .

– يمكن للغة العطف أن تصبح مدعاة للمساءلة والسجن والتعذيب مثلما حدث للبطل بسبب "قططه".

– تعدّ الأبعاد الوبائية المشار إليها في الرواية حقول اشتغال عاجل وضروري لتدارك الزمن والإنسان.

– تبقى الرواية جنسا أدبيا نخبويا قادرا على اختزال الوجع في صورة إبداع وإمتاع وإقناع .

[1] عبد الوهاب بن منصور ، الحي السفلي ، الطبعة 1 ، منشورات مدارج ، تلمسان ، الجزائر ، 2016 ، ص 268

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- أندريه لالاند ، موسوعة لالاند الفلسفية ، المجلّد الأول A-G ، ترجمة خليل أحمد خليل ، الطبعة2، منشورات عويدات، بيروت ، 2001.

- 2 - عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة الجزء الأول من أ إلى س ، الطبعة1، ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، 1984.

- 3- عبد الوهاب بن منصور ، الحي السفلي ، الطبعة 1 ، منشورات مدارج ، تلمسان ، الجزائر ، 2016.

- 4 - رجاء بن سلامة ، العشق والكتابة قراءة في الموروث ، الطبعة 1 ، منشورات الجمل ، كولونيا، ألمانيا ، 2003.

- 5 - عبد الحق بلعابد ، عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص)، ط 1 ، منشورات الاختلاف، الجزائر ، 2008.

- 6 - فؤاد إسحاق الخوري ، ايديولوجيا الجسد رموزية الطهارة والنجاسة ، ط 1 ، دار الساقي ، لبنان ، 1997.

- 7 - لطيف زيتوني ، معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان ناشرون ، ط 1 ، لبنان ، 2002.